المدرسة التاريخية الفرنسية ومحاولات الطمس الحضاري للجزائر

مؤرخي التاريخ القديم أنموذجا

أ/ طليبة بوراس

قسم العلوم الانسانية– جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي

****

. توطئة:

آثار الجزائر ليست مجرد شهود حجرية صامتة، وليست قطعًا من الفسيفساء المتراصة، أو العملات المطمورة، ولكنها رموز لهوية متأصلة، تغرس جذورها في الرمل، وتمتد عبر أحقاب الزمن، فقد عانى هذا البلد على مدى قرن ونصف من الزمن من استعمار فرنسي طاغ، ظل يشكك في هويته، ويحاول طمس قوميته، ويؤكد للعالم في وقاحة منقطعة النظير – كما تفعل إسرائيل اليوم – أن الجزائر ما هي إلا أرض فرنسية ممتدة عبر البحار. وجاءت شواهد الآثار لتؤكد أن هناك شعبا عرف كل طبقات الحضارة البشرية، تراكمت على أرضه، بدءًا من إنسان العصر الحجري، وهو يبحث عن طعامه، إلى ملوك البربر الأسطوريين، ومن قياصرة الرومان، حتى مجيء رايات الفتح الإسلامي، تاريخ ممتد وهوية صلبة ظلت صامتة أمام هذا العته الاستعماري، حتى استعادت الجزائر قوميتها. وكانت الآثار ولا تزال عنوان هذه الهوية القومية.

لقد سعت المدرسة التاريخية الفرنسية إلى محاولة اجتثاث الإنتماء الحضاري للشعب الجزائري، في خطوة منها لرسم ملامح مستقبلية لمستعمرة هجينة غريبة الملامح، لذلك

جاءت جل الكتابات الاستعمارية تخدم هذه الغاية من خلال محاولة تشويه تاريخ الجزائر والنيل من أصالتها وانتمائها الحضاري في محاولة لعزلها عن محيطها العربي الإسلامي، ولقد انتهجت هذا المسلك عن وعي وبصيرة في إطار تحقيق المشروع الإستعماري في الجزائر القائم على فرض منطق الغالب على المغلوب. وتتمثل الإشكالية الرئيسية لهذه المداخلة في رصد بعض تلك المحاولات ومناقشة آثارها الآنية والمستقبلية، لا سيما على المستويات التالية:

1 . توظيف التاريخ القديم.

2 . ستيفان غزيل ونظرية الجمود البربري.

3 . نهب التراث واللامبالاة.

فكثيرا ما ركز الباحثون في محاولة منهم لإبراز سياسة فرنسا التنصيرية للقضاء على الشخصية الجزائرية على سياسة التنصير خصوصا جهود الكاردينال لافيجيري وفرقة الآباء البيض التي شكلها، "ابحثوا عن آثار القديس أوغسطين وغيره من القدّيسين والرهبان، يجب أن نثبت أن هذا البلد كان مسيحيًا في الأصل حتى يقتنع الجزائريون بالدخول إلى المسيحية". هكذا أوصى (الكاردينال لافيجري) جنود الاحتلال الفرنسي مع بداية انتشارهم على أرض الجزائر عام 1843، كان يعتقد أنه فور أن يقتنع الأهالي أن جذورهم مسيحية سوف يدخلون في هذا الدين ويتخلون عن مقاومة الغزو الفرنسي لبلادهم، من هذا المنطلق شجع الكثير من الأساقفة عمليات البحث الأثري، وشاركوا فيها أحيانًا، بحثًا عن بقايا الكنائس ورفات القدّيسين باعتبارها القاعدة التي يستندون إليها في حركتهم التبشيرية. كذلك سعي فرنسا لمحاربة اللغة العربية واتباع سياسة الفرنسة ولعل أخطر ما يذكر في هذا المجال قانون شوطان الذي سنته

فرنسا في 08 مارس 1939 والذي اعتبرت بموجبه اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر[1]، والواقع أن فرنسا استخدمت كل الأساليب المتاحة والماكرة للوصول لهدفها والقضاء على الشخصية الجزائرية العربية الإسلامية، وسيحاول الباحث من خلال هذا المقال ابراز بعض هذه السياسات والأساليب، ففيما تمثلت هذه السياسات وماهي تأثيراتها؟ ومامدى تأثيراتها الآنية والمستقبلية؟

كان الهدف الديني واحدًا من أهداف عدة، فقد اندفعت فرنسا إلى الغوص في عمليات البحث عن الآثار منذ أن وطأت أقدامها أرض الجزائر، وبدأ العسكريون بأنفسهم تلك الرحلات الاستكشافية. في محاولة لرسم الخرائط التي تتضمن المواقع والطرق العسكرية القديمة. واستعان الجيش الفرنسي بهذه المعلومات في وضع الخطط العسكرية التي تدعم إحكام سيطرته على البلاد. كما أن المواقع الأثرية قد أمدت الجيش بالأحجار اللازمة حتى يقوم ببناء التحصينات والأماكن الخاصة لإيواء الجنود، وأعاد إحياء المدن القديمة وحولها إلى حاميات من أجل مصلحته العسكرية.

كما قام بزيارة الجزائر طائفة كبيرة من العلماء الذين قادهم فضولهم العلمي ورغبتهم في إبراز التراث الحضاري للحضارات القديمة في هذه المنطقة، وكان الهدف منها استنطاق الشواهد المادية، وكشف طبقات الحضارات التي تراكمت على أرض هذا البلد، ولم يكن غريبًا أن تتكون العديد من الجمعيات الأثرية والمؤسسات العلمية مثل: مصلحة المعالم التاريخية للجزائر، التي أسست عام 1880 وتولت إدارتها مجموعة من المهندسين المعماريين، والمدرسة العليا للآثار في الجزائر التي لعبت دورًا مهمًا في البحث

[1] – علاء الدين يحياوي: "من أساليب فرنسا للقضاء على الشخصية الجزائرية"، مجلة حروف للدراسات التاريخية، العدد02، نوفمبر 2014، ص48.

الأثري، واستقبلت كثيرًا من أساتذة التاريخ والآثار من كل أنحاء العالم، ولجنة شمال إفريقيا التي اهتمت بالبحث الأثري في كل شمال إفريقيا.

وأسفر البحث الأثري الدؤوب عن العديد من المواقع الأثرية والكشف عن معالمها التاريخية، ودخلت عدة مدن مثل: تمقاد، تبسة، جميلة، تيبازة، شرشال وقسنطينة وغيرها من المدن ضمن المواقع الأثرية، وألحقت بمصلحة المعالم التاريخية ليتسنى لها حمايتها. وقد قامت هذه المصلحة بصيانة هذه الآثار وترميم البعض منها، وإن كانت قد أهملت الآثار الإسلامية، وركزت جهودها على البقايا الرومانية وما قبل ذلك، وتم أيضًا التعريف بالتراث الجزائري، ونُشر العديد من التقارير عن الحفريات في المجلات الأثرية العالمية، وتم جمع النقوش وتصنيفها حسب المدن التي وجدت فيها، وكذا تم جمع القطع النقدية والتعرف على تاريخ صكها، وتصوير لوحات الفسيفساء، ونشر وصفها في سجلات خاصة. ومن المؤكد أن البحث الأثري في الجزائر قد ساهم في إثراء متحف اللوفر بباريس، فقد نقلت إليه الكثير من التحف الفنية والقطع الأثرية، وقد عجز الباحثون الذين نشطوا في هذا المجال في بداية الاحتلال في التصدي لهذا النهب الذي كان منظمًا، ومازالت المحاولات إلى اليوم مستمرة من أجل المطالبة باستعادة هذه الآثار.

1 . توظيف التاريخ القديم:

وهي سياسة استخدمها الإستعمار في كل المناطق التي احتلها مثلما فعل نابليون بونابرت في حملته المعروفة على مصر سنة 1798 والتي اصطحب فيها عددا من العلماء قدروا بحوالي 122 عالما في مختلف التخصصات، ذكرت بعض المصادر أن هدفه كان محاولة لإحياء التراث المصري القديم عن طريق علماء التاريخ وعلماء الآثار

والتنقيب عن الآثار الفرعونية القديمة؛ لربط المصريين متجاوزا الفترة الإسلامية بتاريخهم القديم وبوثنيتهم وفرعونيتهم وإقناعهم بأن أجدادهم هم الفراعنة وليسوا العرب. غرضه من كل هذا إبعاد المصريين عن دينهم وعروبتهم، وفي هذا السياق يقال أن المصريين القدماء كانوا يتخذون من شكل طائر الصقر في إشارة منهم إلى إلاههم حورس الذي كانوا يعبدونه، كرمز للدولة والعلم، ولا ندري إن كان الشكل الذي يتخذه المصريون في علمهم الوطني هو تأثر بتاريخهم القديم أم لا؟[1]

أما في الجزائر فقد حاولت فرنسا إحياء النزعات القديمة ولكن بطريقة أخرى، فمن جهة حاولت الإدعاء بأن أرض الجزائر رومانية مسيحية وأن المسلمين اغتصبوها منهم ومادام الفرنسيون هم ورثة الرومان كما يدعون إذا فهذه الأرض هي أرض فرنسية.

من جهة ثانية لعبت فرنسا على سياسة فرق تسد، فأعلنت أن البربر ليسوا عربا وأنهم من جنس آخر بل ومتميز أيضا وهذا الجنس قريب للمسيحية أكثر منه للإسلام بحكم التاريخ وأن إعتناق البربر للإسلام ظاهري ليس إلا وجهزت لذلك آلتها العلمية من مستشرقين، علماء تاريخ وآثار ورجال كنيسة وعلماء الأنثروبولوجيا وغيرهم. وظهرت البحوث التي تثبت أن جمجمة البربري مختلفة عن جمجمة العربي وأن البربري صفاته أقرب إلى الغاليين أي الفرنسيين[2]، إذا البربر من أصل فرنسي ومادامو كذلك فهم أيضا مسيحيون.

[1] – محمد الهادي الحسني: "ثرثرة فوق النيل"، جريدة الشروق اليومي، يوم 2009/11/25.

[2] – عن هذا ألف طبيبان فرنسيان كتابا بعنوان: مقاييس جماجم البربر وأوصافهم وسماتهم العضوية والعرقية مع مقارنة بسمات ومقاييس جماجم الغاليين، أنظر: صالح فركوس: أصالة وتغريب ـ مشروع فرنسا الصليبية والمجابهة الإسلامية ـ، دار الكوثر للنشر، الجزائر، 1991، ص25.

منذ بداية الإحتلال شرعت فرنسا في تجسيد مشروعها الأول رومانية هذه الأرض ومسيحيتها، فأخذت في إبراز المعالم المسيحية الموجودة في الجزائر والتي تعود إلى فترة ما قبل الفتح الإسلامي للمنطقة وكذا التنقيب عن الآثار المدفونة والتي تعود إلى العهد الروماني، حتى يتم إقناع الناس أن الأصل في الجزائر هو الديانة المسيحية وبالتالي يجب الرجوع لهذا الأصل ونبذ الإسلام. حيث نجد على سبيل المثال أحد الجنرالات الفرنسيين وهو الجنرال دوماس Dumas يعلن قائلا:" كلما تعمقنا في الحفر وجدنا تحت القشرة الإسلامية التي تغطي البربري رحيقا مسيحيا، عند ذلك ندرك بأن القبائلي الذي كان في القديم مسيحيا لم يتحول كلية إلى دينه الجديد". كما وقف ذات يوم كافينياك Cavinaignac الذي كان حاكما للجزائر خلال الفترة ما بين فبراير وأفريل 1848 أمام صليب من العهد الروماني منقوش على صخرة في مدينة موزاية غرب الجزائر العاصمة قائلا:"بما أنها أي روما قد حكمت هنا فما علينا إلا أن نواصل عملها"[1].

لكن أخطر عمل قام به الفرنسيون في إطار بحثهم عن الآثار المسيحية هو اعتداؤهم عن المساجد، من ذلك ما حدث للجامع الكبير، فقد زعموا مستفيدين في ذلك من الخرافة تارة ومن كتب الرحالة تارة أخرى أن هذا الأخير كان مبنيا على هيكل ديني مسيحي قديم، فعمل الفرنسيون على تعرية أساسات الجامع المذكور لعلهم يكتشفون آثار ذلك الهيكل[2].

[1] – الغالي غربي وآخرون: العدوان الفرنسي على الجزائر . الخلفيات والأبعاد .، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، دار هومة، الجزائر، 2007، ص ص275 . 276.

[2] – أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، دار البصائر، الجزائر،2007، ص80.

في هذا الإطار أيضا عملت فرنسا على تشويه ومسخ تاريخ الجزائر بتجاهله أحيانا وحرمان الجزائريين من دراسته دراسة صحيحة في المؤسسات التربوية التي أنشأتها لهذا الغرض والتدخل لإلغائه من المدارس التعليمية الحرة أحيانا أخرى، ومن الخطوات التي اعتمدتها فرنسا لتشويه تاريخ الجزائر نذكر:

أ . زعم المؤرخون الفرنسيون المتعاطفون مع الإحتلال على حساب الحقيقة العلمية التاريخية أن أصل الجزائريين عرقيا ينحدرون من بلاد الغال بجنوب فرنسا وليس من شبه الجزيرة العربية، وذلك حتى يستطيع هؤلاء المؤرخون حمل الجزائريين على قبول فكرة الإندماج في فرنسا باعتبار وحدة الجنس الذي يجمع بين الفرنسيين والجزائريين[1].

ب . ركز علماء التاريخ والآثار الفرنسيون نشاطاتهم وأبحاثهم حول تاريخ الجزائر في العهدين الروماني قبل الإسلام والفرنسي إبان الإحتلال وضربوا متعمدين صفحا عن تاريخ الجزائر والآثار التاريخية التي تعود للعهد العربي الإسلامي، والقصد من ذلك واضح وهو إيهام الجزائريين المثقفين ثقافة فرنسية أو الذين يدرسون في مدارسهم بأن بلادهم فرنسية في حاضرها ومستقبلها ورومانية في ماضيها ولا شيء غير ذلك وبالتالي ليست هناك شخصية قومية للجزائر ماضيا وحاضرا ومستقبلا[2].

وعلى هذا الأساس الذي اعتمدته فرنسا في اهتمامها بالآثار الرومانية القديمة وإهمالها للآثار الإسلامية نجد كذلك الجمعيات التي تهتم بالتنقيب عن الآثار لها النظرة العنصرية نفسها، فترى مدن جميلة، تيمقاد، شرشال وتيبازة وغيرها احتفظت على ما تبقى من

[1] – تركي رابح: التعليم القومي والشخصية الوطنية (1931 . 1956)، دراسة تربوية للشخصية الجزائرية .، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975، ص ص192 . 193.

[2] – نفسه، ص193.

آثارها وخصصت لها أموال ونظمت لها قوافل السياح من بلاد العالم وخصت بالتآليف. أما بجاية وتلمسان وقلعة بني حماد وغيرها فلم يلتفت إليها البته[1]. والأكثر من هذا أن بعض علماء الآثار العلميين وصلت بهم العنصرية إلى التصريح في كتبهم بما سكت عنه أو أغفله زملاءهم، من هؤلاء أوجين ألبريني العالم الأثري الشهير عضو الأكاديمية الفرنسية الذي شارك في مهرجانات العيد المئوي للإحتلال[2] وصرح في الموضوع بقوله:" قبل احتلال الجزائر والإحتلال الفرنسي لم تكن الجزائر إلا فترة من الزمان شاركت الجزائر في الحياة العامة وهي الفترة الرومانية، أما قبلها فكانت الجزائر بلاد عذراء، ضعيفة الموارد يستغلها التجار الفنيقيون الذين كانت مراكزهم التجارية منحصرة في بعض شواطئ البلاد، وبعد انحلال دولة روما رجعت الجزائر إلى البربرية الهمجية، فكانت مسرحا للأحداث الفوضوية حيث لم توجد بها أي رابطة تربطها بالعالم الخارجي اللهم إلا رابطة قراصنتها وذلك إلى غاية سنة 1830، وهو ما يذهب إليه أيضا غاستون بوثول Gaston Bouthoul بقوله عند توطئته للطبعة الثانية لترجمة مقدمة ابن خلدون:"إن أوضاع شمال افريقيا دائما حرجة؛ إما حضارة واستبعاد، أو حرية وهمجية"[3].

[1] – أبو القاسم سعد الله: مجادلة الآخر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2006، ص16.

[2] – وهي احتفالات نظمتها فرنسا بمناسبة مرور قرن على احتلال الجزائر، وقد كان شعار تلك الإحتفالات (تشييع جنازة الإسلام في الجزائر).

[3] – المهدي البوعبدلي: "آثار التبشير المسيحي في الجزائر قبل الإحتلال الفرنسي وبعده"، ضمن أعمال "الملتقى السابع للتعرف على الفكر الإسلامي"، تيزي وزو، 10 . 22 جمادي الثانية 1393 هـ/ 10 . 22 يوليو 1973 م، ج3، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مطبعة البعث، قسنطينة، 1975، ص ص1339 . 1340.

ج . ايلاء الفترة الفرنسية كل الإهتمام والعناية وتجعل من أولويات برامجها التعريف بالمهمة الحضارية الأوربية لإستكمال مزايا العهد الروماني السابق على حد زعمها، ففي سنة 1830 وبعد أن مر عليها عشرون قرنا نزل الفرنسيون بافريقيا أبناء الحضارة الرومانية من أجل استئناف من جديد المهمة التي استهلها الرومان.

لقد كان القصد من هذا إبراز فوائد الإستعمار ومزاياه واسئناف العمل الحضاري الذي انقطع وتوقف نشاطه مدة 13 قرنا. إنه عمل ماكر من وحي منظري الإستعمار الذين حاولوا فصل الجزائريين عن تاريخهم ووطنهم حتى تسهل عملية طمس التاريخ الوطني للجزائريين وبالتالي تحضيرهم لعملية الفرنسة والتنصير وأخيرا الإدماج باعطائهم ماض ووطن جديدين. إن التغني بالغاليين كأجداد للجزائريين لم يكن موضوعا فلكلوريا ولكنه يمثل إرادة سياسية هادفة هي الفرنسة الكاملة التي يرتمي فيها الجزائريون جسدا وروحا، لأن القصد من تشويه التاريخ الوطني الجزائري وتزييفه بثوابته الراسخة والعميقة عمق هذا الوطن هو أن ينشأ الجزائريون الذين يترددون على مدارس الإحتلال على هذه الصورة المزيفة وهم معتقدين منذ الصغر بأن أصل أجدادهم من جنس وأصل أوربيين وبالتالي يصبحون أسهل إنقيادا وأسرع استجابة لقبول السياسة الإستعمارية[1].

2 . ستيفان غزيل ونظرية الجمود البربري:

إذا كانت الطبيعة كما يقال ترفض الفراغ، فإن هناك أيضا من المؤرخين من يكره الصفحات البيضاء، لذلك تجدهم يزخرفون ويخترعون ولا يتوانون في استعمال المفارقات

[1] – عبد القادر حلوش:"أهمية التاريخ والجغرافيا في البرامج التعليمية الفرنسية في الجزائر"، مجلة الرؤية، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، ع2، ماي. جوان 1996، ص ص20 . 21.

التاريخية فينظرون إلى الماضي بمنظار الحاضر. وهذا بالذات ما فعله ستيفان غزيل عندما وجد نفسه مفتقرا إلى المعطيات التاريخية الدقيقة والكافية لوصف حياة البربر في القديم فلجأ إلى المجتمع البربري المعروف في عصره ليطوي آلاف السنين بقوله:" تظل المعلومات التي نحصل عليها من خلال ما كتبه المؤلفون القدامى، جزئية وناقصة كما أسلفنا الذكر...استكملت فيما بعد، دونما عميق تعديل"، هكذا تمكن غزيل من رسم صورة عن البربر خارج كل تسلسل زمني، ولم يجد ليسوس في مثل هذه الطريقة أي حرج نظرا حسب رأيه لما في الحالتين من تشابه بل أضاف قائلا:" أن غزيل قد زودنا بفضل طريقته هذه بلوحة للبربر خارج أي تسلسل زمني ومعنى ذلك أنه أعطانا صورة للبربري الأبدي. ولم تلبث فرضية غزيل هذه أن تحولت إلى مسألة لا جدال فيها تقضي باعتبار المجتمع المغربي المعاصر مماثلا للمجتمع البربري القديم على الرغم من آلاف السنين التي تفصل بينهما والتي كانت حافلة بالأحداث والتغيرات السياسية والإجتماعية والإقتصادية والعرقية. بل نجد غابريال كامبس يصرح بقوله:" لقد سمحت العلاقات القائمة بين بلاد البربر والبلدان المجاورة بإعداد حضارة ريفية ذات طابع متوسطي، حضارة هيأتها مكتسبات العصر الحجري الحديث، وكان أن أصبحت هذه الحضارة دائمة بدوام البربر أنفسهم. ورغم القرون المثقلة بالأحداث لم يطرأ أي تغيير على هذه الحضارة، وعلى هؤلاء البربر. فالفلاحون وهم اليوم يستقرون بمرتفعات التل يطلعوننا على نمط حياة المقيمين الذين كانوا قبل الأزمنة التاريخية يزرعون أراضي المغرب الوعرة. أما البدو المعربون في غضون القرون الأخيرة فلم يطرأ عليهم بدورهم أي تغيير. فعصور نشوء البشرية لا تبدو أزمنة غابرة"[1].

[1] – محند الشريف ساحلي: تخليص التاريخ من الإستعمار، تر: محمد الشريف بن دالي حسين، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2013، ص22.

لقد كانت هناك جماعة كبيرة من المؤرخين؛ بدءا بغوتيي وجوليان وانتهاءا بليسوس وبرتيي وكامبس، ضخمت هذه المسألة وتوسعت فيها انطلاقا من أن البربري لا يتغير مع الزمن، وظل على ماهو عليه منذ أزمنة ما قبل التاريخ. وظل يعيش حياته ضمن نفس الأطر التنظيمية البسيطة ونعني بذلك العائلة القائمة على النسب الأبوي والعشيرة والطقوس الريفية. وتقدم هذه السمات على أنها سمات شخصية سلبية تخلو من أي تجديد وأي استعداد للتحرر وللوحدة السياسية. كما تقدم الحضارات الراقية التي شهدتها المنطقة عبر الزمن على أنها كانت دوما دخيلة إذ ما لبثت أن زالت بزوال الغزاة، ولم تمس إلا المدن أما الريف فظل على أوضاعه التقليدية[1]. وللتذكير فإن ليسوس قد تحدث عن تشابهات تؤيد ما ذهب إليه غزيل، ويعطي جوليان في كتابه افريقيا الشمالية تسير توضيحات حول هذه التشابهات ويتعلق الأمر على وجه الخصوص؛ بمخلفات وثنية اهتم بدراستها بعض علماء الإجتاع من أمثال دوتي وواسترمارك، غير أنه لا يمكن أن ننطلق من أبحاث خصت مثلا الطقوس الريفية لنستنتج منها أن سكان المنطقة لم يعتنقوا الإسلام إلا بصورة سطحية، وأن نركز على استمرار وجود القبائل والعشائر لنستخلص منها وجود ميل موروث إلى التقسيم السياسي[2]. وعليه ليس من الممكن اعتبار هذه المخالفات الوثنية سمة جوهرية لروح سكان شمال افريقيا، اللهم إلا إذا اكتفى المرء بملاحظة سطحية بعيدة عن الدقة المطلوبة والتمحيص الكافي.

الشيء نفسه ينطبق على التخلف الثقافي ووجود قطاعات اجتماعية واقتصادية قليلة التطور، حيث ترجع إلى أثار السيطرة الإستعمارية التي من شأنها أن تشكل بالضرورة عاملا للتخلف الإقتصادي والإجتماعي والثقافي. فمن المؤكد أن الأهالي وجدوا

[1] – نفسه، ص72.

[2] – نفسه، ص74.

أنفسهم أمام محاولتين؛ محاولة للمسخ الشامل تمثلت في غزو وحشي لا يعرف الرحمة واغتصاب شامل لكل الخيرات وخنق لكل الحريات ولجميع أشكال التعبير الثقافي، فلما يجد مجتمع ما نفسه في هذه الظروف تصبح القضية مسألة حياة أو موت؛ فينطوي على ذاته ويلجأ دفاعا عن نفسه وفي نوع من المقاومة الذاتية إلى أوضاع أكثر أمنا وإلى صيغ تنظيمية في الإقتصاد والإجتماع تكون أكثر بساطة. ملخص القول أن نظرية الإستمرار البربري لستيفان غزيل تؤول في نهاية الأمر إلى نفي المصير التاريخي وتفضي إلى عنصرية بدائية، فعندما يبتعد عالم ما عن حقل الوقائع الملموسة والحجج العقلانية لوضع نظرياته، فذاك معناه أنه خاضع ؛ عن قصد أو دون قصد لدوافع تخرج عن نطاق العلم.

لقد غاب عنه الكم الهائل من الآثار التي خلفتها الحضارات التي تراكمت على أرض الجزائر، من عصر الإنسان الحجري، إلى ملوك البربر الذين أقاموا أول دولة منظمة في الصحراء، إلى البحارة الفينيقيين الذين تركوا بصماتهم على موانئ المتوسط، إلى سيطرة الرومان أعظم المهندسين الذين عرفهم التاريخ، إلى رايات الفتح الإسلامي التي جاءت لتمزج بين العرب والبربر في عقيدة واحدة، إلى الحكم العثماني الذي جاء منقذًا ليفك الحصار البحري الذي فرضته الأساطيل المسيحية عليها، بعد هذا كله جاء غزيل وهو العالم المختص لينكر تمامًا أي قومية أو هوية خاصة بالجزائر.

لقد كانت القومية الجزائرية أقدم عهدًا من العديد من الدول الأوربية التي لم تعرف القوميات إلا مع بداية القرن التاسع عشر، وهي أيضا قد سبقت الدول العربية التي كانت لا تزال خاضعة للحكم العثماني، فقد كانت دولة ذات سيادة منذ أواخر القرن السابع عشر لا تربطها بالدولة العثمانية سوى خيوط من التبعية الاسمية.

رغم ذلك فقد حاول المؤرخون الفرنسيون نفي وجود هذه القومية كليًا، وحاولت الكاتبة الفرنسية جوان جيسبي الزعم بأن الشعور القومي لم يكن موجودًا ولم تتحدد ملامح الشخصية الوطنية إلا كرد فعل للاحتلال الفرنسي في منتصف القرن العشرين، وحاول الفرنسيون اختزال هذا التاريخ الطويل وتشويهه. وركزوا فقط على الفترة الرومانية في الجزائر واعتبروا أنفسهم الورثة الحقيقيين لها، أما الوجود الإسلامي الممتد، فقد صورته فرنسا كما جاء على لسان غاستون بوثول Gaston Bouthoul على أنه فترات من الصراع والاضطراب بين العرب والبربر وبالتالي فهو لا يعد تاريخًا ملزمًا لهم.

3. نهب التراث واللامبالاة:

منذ الأيام الأولى للإحتلال شرع الجنود الفرنسيون في إتلاف الوثائق الجزائرية، أي منذ أن أباح قائد الحملة الجنرال دوبرمون مدينة الجزائر شهرا كاملا لجنوده يعيثون فيها فسادا وسرقة[1]، وخلال عمليات الغزو التي استمرت سبعين سنة (1830 . 1900)، كان ضباط جيش الإحتلال ورجال الدين المسيحي ينهبون المكتبات الجزائرية التي يعثرون عليها في مختلف جهات القطر سواء أكانت عامة أو خاصة ويرسلونها لذويهم في فرنسا أو يبيعونها لتجار الكتب الأوربيين. هذا فضلا عن الكتب التي أحرقوها أو بعثروها كما فعلوا بمكتبة الأمير عبد القادر في سنوات الإحتلال الأولى، ويقال أن الأمير أصابته نوبة من الحزن الشديد وهو يتتبع آثار الطابور الفرنسي مسترشدا بالأوراق المبعثرة في الصحراء والتي عانى الأميرا كثيرا في جمعها. هذا ما يفسر ظاهرة انتشار المخطوطات العربية في مكتبات معظم البلديات الفرنسية، ولا شك أن هذا النهب

[1] – أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 1998، ص330.

المتعمد للتراث الثقافي الوطني يدخل في نطاق محاربة الثقافة العربية والعمل على طمس معالمها لأنها هي المقوم الأساس للشخصية الجزائرية التي يسعى الإحتلال للقضاء عليها[1]. هذا دون أن نغفل عمليات النهب التي طالت الآثار، فكثير من القطع الأثرية واللوحات الفنية لا زالت تزين متحف اللوفر إلى اليوم. وفي انكار لتلك العمليات التي طالت الإرث الحضاري والثقافي الجزائري يصرح شارل أندري جوليان بقوله:" إن المغرب قد خان المؤرخين" في إشارة منه لندرة المؤلفات، لكن ماذا سيقوله هذا الخائن لو تسنى له الكلام؟ كما يلوم ليسوس بعض الشعوب على صمتها بقوله:" إن المؤرخين لمضطرون إلى إستعمال الوثائق التي تركت لهم. فإن بقيت الشعوب صامته، فقد يحتمل أن يكون التاريخ أكثر صمتا". ولعل القرطاجيين والنوميديين المستهدفين بهذا القول كانوا أقل ثرثرة من غيرهم، ولكن إصدار حكم كهذا بات غير لائق في حقهم، فهل تم القيام بحصيلة وإن بطريقة تقريبية لكل ما ضاع بفعل الزمن وبسبب النهب والتخريب عن قصد أو غير قصد؟ أما من وجهة نظر سكان افريقيا فإنه لا يسع المرء إلا أن يتأسف على اختفاء أعمال الملكين هيمبسال Hiempsal ويوبا الثاني Juba2. ثم هل نستطيع القول أن ما هو موجود قد كان على الأقل محل دراسة وبحث واستغلال كافيين؟ فهذا ليسوس المؤرخ وعالم الآثار مرة ثانية يؤكد أن علم الآثار في شمال افريقيا " لا زال في بداياته ". ولقد تمت بالتأكيد منذ ما يربو على القرنين أو يزيد حفريات عديدة، غير أن جهود الباحثين انصبت على ذكريات روما التي تعتبر فرنسا نفسا وريثة لها على الأرض الإفريقية. وإنهم لم يهتموا بالتراث النوميدي والقرطاجي لا سيما وأن اظهاره كان يتطلب التضحية بالآثار الرومانية المدفون تحتها. ويضيف ليسوس قائلا:" إننا لا نعرف كثيرا عن أعمال السلم التي من الممكن أن يكون هؤلاء الملوك البربر قد

[1] – تركي رابح، المرجع السابق، ص ص94 . 95.

قاموا بها، ومن المحتمل أن نعرف ذلك ذات يوم معرفة أفضل، فالماضي البربري لإفريقيا القديمة، مثل ماضيها القرطاجي مدفون الآن. ففي هبون مثلا وفور الإنتهاء من اظهار المدينة الرومانية بما فيه الكفاية يمكن التضحية بجزء منها للبحث في باطن الرض عن آثار ماضيها السحيق"[1]. ومع ذلك فإن هناك بعض الملاحظات التي لا تبعث على التفاؤل في هذا المجال، ونعني بذلك التخلي عن الحفريات التي شرع فيها بسيغا Siga التي كانت عاصمة سيفاكس. أما شرشال عاصمة الملوك الموريتانيين ويوبا الثاني، فلم يتم حفرها إلا قليلا. هذا لا يعني أن الماضي العربي الإسلامي الذي هو أكثر جدة قد حضي بعناية أكبر من طرف البحث الأثري الإستعماري. إنه تراث وماض دفنا عن قصد ولو تمت دراستهما بروح الموضوعية والنزاهة العلمية لفقدت عبارة "القرون المظلمة" علة وجودها.

بناءا على ما تقدم يظهر جليا كيف أن تذمر المؤرخين من عدم وفرة الوثائق لا مبرر له، وتجدر الإشارة أنهم لا يزالون متشبثين بذلك التصور البالي في نظري والقاضي بالإعتماد على الوثيقة المكتوبة في كتابة التاريخ. وإن عباد الوثيقة هؤلاء هم من يقصدهم لوسيان فافر Lucien Febvre حينما يقول: "تتم كتابة التاريخ من دون شك بالإعتماد على الوثائق المكتوبة عندما تكون موجودة، ويمكن أن تتم بل يجب أن تتم بكل ما تسمح عبقرية المؤرخ باستعماله...أي بكلمات وإشارات ومناظر وحبات القرميد وأشكال الحقول ونباتات ضارة وخسوفات القمر وأطواق حيوانات الجر، ودراسة الحجار من طرف جيولوجيين، وتحليل السيوف المعدنية من طرف كيميائيين". وإننا نعرف كم كان ولا يزال هذا التصور العصري والعلمي يعتبر مصدرا خصبا لحياة الناس الإجتماعية والإقتصادية. ولا يسعنا إلا أن نتأسف عن عدم تمكن مثل هذا

[1] – محند الشريف ساحلي، المرجع السابق، ص ص159 . 160.

التجديد في التصور من مؤرخي شمال افريقيا الذين ظلوا أوفياء لذلك التصور التقليدي الذي جعلهم دون شك أقرب إلى تاسيت Tcite منهم إلى لوسيان فافر.

. خاتمة:

هكذا استغلت فرنسا كل السبل والوسائل والأساليب للقضاء على الشخصية الجزائرية، سواء عن طريق استغلال التاريخ القديم في خدمة الإستعمار أو محاولة اطلاق جملة من المسلمات كالحتمية العرقية والجمود البربري، إضافة إلى نهب التراث أو تجاهل ما هو موجود في محاولة لهدم بنية المجتمع الجزائري. وما يبعث على القلق أن تأثير هذه الأساليب والوسائل لم يكن آنيا يزول بزوال الإستعمار بل كان بمثابة القنبلة الموقوته التي تنفجر بعد مدة. فعلى الرغم من أنه خلال فترة الإستعمار لم تظهر كثيرا مسألة الخلاف بين مكونات الشعب الجزائري إلا قليلا على إثر مايعرف بالأزمة البربرية سنة 1949، التي استطاع حزب الشعب يومها احتواءها' فإن المسألة اليوم قد طفت على السطح بشكل كبير جدا فلا أحد ينكر وجود أزمة هوية خطيرة في الجزائر قد تتطور أكثر وأكثر إن لم يتم علاجها بشكل سليم وسلمي أيضا.

وفي سياق آخر يبدو أننا قد ورثنا عن الإستعمار طبع الإعتناء بالآثار الرومانية دون الإسلامية، وكما يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله رحمه الله الذي انتبه إلى هذا الأمر مبكرا:"كم منا الذي يعرف ويسمع بجميلة وتيمقاد، وكم هم أولئك الذين يسمعون بقلعة بني حماد وغيرها؟

وإذا كان من مسؤولية المؤرخين وعلماء الآثار الجزائريين تخليص التاريخ الجزائري من الإستعمار بعيدا عن دسائس المدرسة التاريخية الإستعمارية بما يعزز انتماؤنا الحضاري

ومدى اسهامنا في الحضارة الإنسانية؛ فإن على الدولة الجزائرية أيضا تحمل مسؤولية إعادة التراث المنهوب سواء أكان أرشيفا أو مخطوطات أو تحف وآثار.